جذور علم السيمياء في المجتمع العربي القديم

د. زغدودة ذياب. مروش: جامعة باتنة الجزائر

الملخص:

يتحدث المقال عن إحدى العلوم التي اضطرب بها الوعاء العلمي حديثا؛ وهو علم السيمياء ، الذي يهتم بدراسة العلامة اللسانية، وغير اللسانية داخل الحياة الاجتماعية. هذه العلامة التي تُقرأُ بطرائق مختلفة ، وتختلف من مجتمع إلى آخر، فتارة يستفاد منها من جهة التصريح ،وطورا من جهة التلميح. فالأشياء تكتسب صفة النسق السيميولوجي من اللغة، أين ينساب الدال وينزلق مراوغا قبضة المدلول ، للتأثير في الغير بقصد أو بغير قصد. ثم يتوسع ليشمل الأنظمة الثقافية، ويرصد الدلالات الرمزية ، فيجعلنا نجزم أن للسيمياء جذور ضاربة في المجتمع العربي القديم.

Semiotics roots in the ancient Arab society

Summary

The article talks about a science that was troubled by the newly scientific vessel; a Semiotics, which focuses on the study of brand linguistic and non-linguistic within social life. This tag that read in different ways, and vary from one community to another, Sometimes utilized on the one hand remark, phase one hand hint. The things are gaining recipe semiotic the layout of the language, where flows of sliding signifier and the signified elusive grip, to influence the non-intentionally or unintentionally. And then expanded to include cultural systems, and made symbolic indications, this is why we are certain that the Semiotics deep roots in the ancient Arab society

مقدمة:

لقد حصر دو سوسير علم السيمياء في دراسة العلامات ذات البعد الاجتماعي فقال: "يمكننا إذن تصوّر علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكّل جانباً من علم النّفس الاجتماعي، وبالتّالي من علم النّفس العامّ. وإنّنا ندعوه بـ:"الأعراضية" تلك الّتي تدلّنا على كنه وماهية العلامات والقوانين الّتي تنظّمها". فالسيمياء تبحث في حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية ، ولها علاقة وطيدة بعلم النفس[1]. فالعلاقات الاجتماعية لا تقوم ما لم ننسج علاقات تواصلية. تتخذ من الظواهر الثقافية آلية لتغيير المحيط الاجتماعي، والتواصل هو الهدف المقصود من السيمياء وموضوعه في بيان الدلائل القائمة على القصدية التواصلية . و اللغة هي الخط الفاصل بين الطبيعة والثقافة، وهي التي تنفرد بميزة

إنسانية وثقافية واجتماعية ، فهي واقعة ثقافية بالمفهوم السيميائي للكلمة ، وهي نشاط إنساني الغرض منه في الأساس، التواصل وتوظيف الثقافة وتنشيط حركيتها.

وألفاظ اللغة لا تستقر على دلالة واحدة ، بل تتغير دلالتها بتغير موقعها في نسق الجملة . والعلامة تقرأ بطرائق مختلفة، لأنها تعتمد في تحصيل معناها على علاقاتها بعلامات أخرى في النص، وفي نصوص أخرى. "فالكلمة إشارة حرة تم تحريرها على يدي المبدع، الذي يلقي عتاقها ويرسلها صوب المتلقي ، لا ليقيدها مرة أخرى بتصور مجتلب من بطون المعاجم ... وإنما للتفاعل معها بفتح أبواب خياله لها"[2] .فالعلامة اللسانية لا يسودها تواضع مطلق ، ولكنها تشحن في أي مناسبة بمدلول جديد ، دون أن تضيق ذرعا بالشحن الدلالي القديم، بمعنى أن " الكلمات تدخل عالم الاعتباط فور توظيفها بهذا المعنى ، للتجرد من أي تواضع واصطلاح ، استعدادا للانفتاح على معنى آخر، بمعنى أن الدال والمدلول لكلمة ما لا يقيم بينهما أي اتفاق حميمي ولا عدواني"[3]. وباعتبار أن الألفاظ هي قوالب المعاني المستفادة منها ، فتارة يستفاد منها من جهة النطق تصريحا ،وتارة من جهته تلويحا . فالأول المنطوق ،والثاني المفهوم ، والمنطوق يتعلق بالحقيقة والمعنى الواضح الذي لا يحتاج إلى تدبر لصراحته ونفيه لأي تأويل ،والمفهوم يفتح المجال أمام النشاط التأويلي. أضف إلى ذلك أن ما "يتغير في اللغة لا يعتري المفردات الأساس مطلقا ،الذي يتغير في اللغة باستمرار هو بنيتها التركيبية لأنها من صنع المتكلم ، وهو مهندسها"[4]، فأمر التركيب موكول لاختيار المتكلم، الذي يستعين بعلم النحو في تنويع تراكيبه. يقول السيوطي: " والحق أن العرب إنما وضعت أنواع المركبات، أما جزئيات الأنواع فلا،... فوضعت باب الفاعل لإسناد كل فعل إلى من صدر عنه أما الفاعل المخصوص فلا...وأحالت المعنى على اختيار المتكلم"[5].

إن علم السيميولوجيا ، أو السيمياء ، هو أحد العلوم الحديثة ،و ثمرة من ثمار القرن العشرين ، يقوم بدراسة العلامات المبتدعة من قبل الإنسان ، ويقصد بالعلامة الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف (بأي لغة كانت)، والعلامات غير اللسانية (أو غير اللفظية): وهي التي تقوم على أنواع سننية أخرى غير الأصوات والحروف. ويمكن أن نقسمها إلى علامات عضوية مرتبطة بجسم الإنسان (مثل: حركات الجسم وأوضاع الجسد والعلامات الشمية والسمعية والذوقية...)، وعلامات تحيل على أشياء خارجة عن العضوية الإنسانية (مثل: الملابس والموسيقى وإشارات المرور). فالسيمياء هو علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها، وهذا يعني أن النظام الكوني بكل ما يحويه من علامات ورموز هو نظام ذو دلالة. والسيمياء ليست حديثة النشأة، بل أن لها مسارا تاريخيا قديما ، بسط أركانه وجذوره في المجتمع العربي القديم.

صلب المقال:

أولا : معنى السيمياء وموضوعها:

إن أصل كلمة سيميولوجيا يوناني؛ فهي مركبة من Semeion بمعنى علامة و Logos بمعنى خطاب. ويعبر عنه حالياً بمصطلحين، هما "Sémiologie" :بالفرنسية و "Sémiotic"بالإنجليزية. وقد عبر بها الطبيب والفيلسوف جالينوس، ليدل بها عن الأعراض المرضية التي تعتري المريض، لأن هذه الأعراض علامة مرضية فيه. ثم توسعت لتضم العلامات البصرية والشمية والذوقية واللمسية والحركية والسمعية والإشارية. وقد ورد اللفظ في القرآن الكريم في السور التالية:

1- الآية 273من سورة البقرة ؛ومنها :{ **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** }
2- الآية 46 من سورة الأعراف وفيها : { **وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ** }
3- الآية 48 من سورة الأعراف ؛ وفيها :{ **وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ** }
4- الآية 30 من سورة محمد ؛وفيها :{**وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** }
5- الآية 29 من سورة الفتح وفيها :{ **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**}
6- الآية 41 من سورة الرحمن وفيها :{ **يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ** } .

و ورد في لسان العرب، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر:" سوموا فإن الملائكة قد سومت" أي اعملوا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضا .

جاء في كتاب :كشاف اصطلاحات العلوم و الفنون ، أن السيميا "هو علم يكون به تسخير الجن"[6].

وقولهم: سام" الذي هو مقلوب "وَسَمَ"، على وزن "عفل"، و أصلها: وِسْمَةٌ، ويقولون: سِيمَى بالقصر، وسيماء بالمد، وسيمياء بزيادة الياء وبالمد، ويقولون: سَوَّمَ إذا جَعَلَ سمة، وسَوَّمَ فرسَهُ، أي: جعل عليه السيمة، وقيل: الخيل المسومة هي التي عليها السيما والسومةُ، وهي العلامةُ[7].وقولهم وسوم الفرس : جعل عليه السيمة ، السيم العلامات على صوف الغنم . ورد في معجم المعاني الجامع : السِّيمِياءُ : السِّحر ، وحاصلُه إحداث مثالات خياليّة لا وجود لها في الحسّ". و السيمياء هي اسم لما هو غير حقيقي من السحر ...وسيمياء ، لفظ عبراني معرب أصله (سيم به)[8].

وفيه يقول العلوي الشنقيطي:

ومن علوم الشر علم الجدول**** والسيمياء والكيمياء والهيكل

والسيمياء علم يبحث في دلالات الإشارات في الحياة الاجتماعية وأنظمتها اللغوية، و"هي العلم الذي يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون ، ويدرس بالتالي توزيعها ووظائفها الداخلية والخارجية "[9].

يقول دو سوسير عن السيمياء في كتابه؛ محاضرات في علم اللغة : "أنها العلم الذي يدرس حياة العلامات من داخل الحياة الاجتماعية. ونستطيع أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي ،وهذا العلم يشكل جزء من علم النفس العام .ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة (السيميولوجيا)وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي تقتنص بها الدلالات والمعاني .وما دام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمصيره ،غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود . وقد تحدد موضوعه بصفة قبلية .وليس علم اللسان إلا جزء من هذا العلم العام وسيبين لنا هذا العلم ما هو مضمون الإشارات ،وأي قوانين تتحكم فيها "[10].

و يعرف السيمياء بيار غيرو بأنها: "العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات: اللغات، والأنظمة والإشارات والتعليمات..."[11] وهذا التحديد يدخل اللغة تحت مفهوم السيميوطيقا. وهو الفهم الجديد لعلم السيمياء الذي يطلقان على هذا العلم :السيميوطيقا ،والسيميولوجيا .وهذا الاختلاف البراجماتي لا ينفي القرب الشديد بين المصطلحين ،بل وترادفهما."فالسيميولوجيا إذن مرادفة للسيميوطيقا ، وموضوعهما دراسة أنظمة العلامات أيا كان مصدرها : لغويا أو سننيا أو مؤشريا. وهي"عبارة عن لعبة التفكيك والتركيب، وتحديد البنيات العميقة الثاوية وراء البنيات السطحية المتمظهرة فونولوجياً ودلالياً"[12]. فالسيمياء هي العلم الذي يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون، ويدرس بالتالي توزعها ووظائفها الداخلية والخارجية.

موضوع السيمياء: تبحث السيميائية عن المعنى ،من خلال بنية الاختلاف ولغة الشكل والبنى الدالة. وهي لذلك لا تهتم بالنص ولا بمن قاله ، وإنما تحاول الإجابة عن تساؤل وحيد هو كيف قال النص، ما قاله ؟ ومن أجل ذلك يفكك النص ويعاد تركيبه من جديد لتحدد ثوابته البنيوية. ومن ثم، تستكنه السيميوطيقا مولدات النصوص و تكوناتها البنيوية الداخلية، وتبحث جادة عن أسباب التعدد ، ولانهائية الخطابات والنصوص والبرامج السردية، وتسعى إلى اكتشاف البنيات العميقة الثابتة، وترصد الأسس الجوهرية المنطقية التي تكون وراء سبب اختلاف النصوص والجمل و الملفوظات والخطابات[13].

وفي علاقة السيميائية باللسانيات : قولان :الأول هو رأي دو سوسير ويقول إن اللسانيات أخص من السيميائية لأن اللسانيات جزء من السيميائية عنده . والثاني هو رأي رولان بارت القاضي بأن السيميائية جزء من اللسانيات وفرع عنها . فدو سوسير يرى أن السيميائية هي الحقل الأوسع الذي يشمل –فيما يشمل –اللسانيات ،بينما يرى رولان بارت أن كثيرا من العلامات البصرية والأنساق غير اللفظية تستعين بالأنظمة اللغوية ،مما يجعل هذه الأخيرة هي الأصل .

ثانيا :سيميائية الدلالة:

يقسم الباحث المغربي حنون مبارك الاتجاهات السيميوطيقية إلى سيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الدلالة. ومن جهة أخرى، يحصر عواد علي بدوره السيميولوجيا في ثلاثة اتجاهات: سيمياء التواصل، وسيمياء الدلالة، وسيمياء الثقافة[14]. ويحدد مارسيلو داسكال(Marcilo Dascal) كغيره اتجاهات السيميولوجيا في ثلاثة تيارات: سيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الدلالة، وسيميولوجيا التعبير عن الفكر[15].

يعتبر رولان بارت(R.Barthes) خير من يمثل سيميولوجية الدلالة ، لأن البحث السيميولوجي لديه هو دراسة الأنظمة الدالة، فجميع الأنساق والوقائع تدل. فهناك من يدل بواسطة اللغة، وهناك من يدل بدون اللغة السننية، بيد أن لها لغة دلالية خاصة بها. ومادامت الأنساق والوقائع كلها دالة، فلا عيب في تطبيق المقاييس اللسانية على الوقائع غير اللفظية . أي: أنظمة السيميوطيقا غير اللسانية لبناء الطرح الدلالي. ومن هنا، فقد انتقد بارت في كتابه "عناصر السيميولوجيا" الأطروحة السوسيرية التي تدعو إلى إدماج اللسانيات في قلب السيميولوجيا، مؤكدا أن اللسانيات ليست فرعا ولو كان مميزا، من علم الدلائل(السيميولوجيا)، بل السيميولوجيا هي التي تشكل فرعا من اللسانيات[16]. ذلك أن الأشياء تحمل دلالات. غير أنه ما كان لها أن تكون أنساقا سيميولوجية أو أنساقا دالة لولا تدخل اللغة، ولولا امتزاجها باللغة. فهي إذن تكتسب صفة النسق السيميولوجي من اللغة.

إن مفهوم الدلالة مفهوم مركزي ينتظم حوله النشاط السيميائي في مجمله . وهي الناتج الصافي للمادة ، وهي وجهها المتحقق أو هي صيرورة إنتاج المعنى . ويرى آخرون أن السيميائية لا تبحث عن دلالات جاهزة أو سابقة على الممارسة ، بل هي "بحث في شروط الإنتاج والتداول والاستهلاك . لأن ما "يستهوي النشاط السيميائي ليس المعنى المجرد والمعطى لأنه مرحلة سابقة على الإنتاج ، بل هو المعنى من حيث هو تحققات متنوعة ميزتها التمنع والاستعصاء على الضبط "[17].

وسيمياء الدلالة اهتمت بما أهملته سيمياء التواصل لا لشيء سوى لأن عملية التواصل لا محالة ستتأثر بقصد أو بغير قصد ، لذا فلا يمكن إغفال الإشارات دون الأدلة بما أنها غير مقصودة بل ستساهم في عملية التواصل ، و قد تصبح العلامات غير المقصودة أكثر تأثيرا من العلامات المقصودة في بعض الأحيان. لذلك نجد أن أصحاب هذا الاتجاه قد اهتموا بالجانب الدلالي للعلامة ؛ حيث يؤكد "رولان بارت" بأن إمكانية التواصل قد تتوفر سواء بمقصديه أم بغير مقصديه وبكل الأشياء الطبيعية والثقافية سواء أكانت اعتباطية أم غير اعتباطية، فعملية التواصل لا محال واقعة لذا آمن أن وحدة النص لا تكمن في مقصد المؤلف بل في بنية النص، فنادى حينها بموت المؤلف ورأى أن القراء أحرار في فتح العملية

الدلالية للنص وإغلاقها دون أي اعتبار بالمدلول وعلى نحو يغدو معه القراء أحرارا في أن ينالوا لذتهم من النص وأن يتابعوا حين يشاؤون تقلبات الدال وهو ينساب وينزلق مراوغا قبضة المدلول.

ثالثا: سيمياء التواصل والثقافة: التواصل هو جوهر العلاقات الإنسانية ومحققها، وهو في اللغة الاقتران والصلة ، والترابط ، والإبلاغ، والإعلام، وفي الاصطلاح، يدل على عملية نقل الأفكار والتجارب، ومبادلة المعارف والمشاعر بين الأفراد والجماعات . أما سيمياء التواصل فتهدف إلى الإبلاغ ، والتأثير في الغير عن وعي أو غير وعي ، فتشمل مجموعة من الوسائل اللغوية وغير اللغوية لتنبيه الآخر والتأثير فيه، عن طريق إرسال رسالة ، وتبليغها إياه، لذلك فقد يكون التواصل لفظي لساني ، وقد يكون غير لساني ، مثل علامات المرور.

أما سيمياء الثقافة فهي دراسة الأنظمة الثقافية باعتبارها دوالا وعلامات وأيقونات وإشارات رمزية لغوية وبصرية، بغية استكناه المعنى الثقافي الحقيقي داخل المجتمع، ورصد الدلالات الرمزية والأنتروبولوجية والفلسفية والأخلاقية. ولا تقتصر هذه السيمياء على ثقافة واحدة أو خاصة، بل تتعدى ذلك إلى ثقافات كونية تتسم بطابع عام، قوامها: الانفتاح، والتعايش، والتواصل، والتكامل، والتعددية، والتهجين، والاختلاف، والتنوع، والتسامح، والتعاون، والمثاقفة، وتداخل النصوص (التناص)، وتعدد اللغات والثقافات[18].

رابعا: المجتمع العربي القديم ومظاهر علم السيمياء:

اقترن مصطلح السيمياء في حركة التأليف المبكرة عند العرب بجابر بن حيان (200هـ. 815م) ، الذي لم تساعده أدوات عصره على تحقيق ما كان يفكر فيه من خيال علمي طموح، بتحويل المعادن قليلة الأهمية إلى معادن ثمينة. ولما عجز عن تحقيق ذلك تحولت عنده الكيمياء إلى السيمياء.

وكانت المجتمعات تزخر بالطرق العجيبة في إقامة الطقوس الدينية والتي أحاطت بها معظم أنشطتها، فكان المهتمون بذلك، وقبل البدء في تجربة من التجارب يقرءون الرقى والعزائم المختلطة بالكثير من الشعوذة . وكانوا يستخدمون الطرق المبهمة في كتاباتهم محاولين إخاء معلوماتهم الحقيقة خلف ألفاظ وتعابير غريبة مختلطة بالكثير من الرموز الغامضة . وكانوا يختارون الوقت المناسب لهم لإجراء تجاربهم ، واعتمدوا في ذلك على النجوم وتحركاتها حتى أنهم قرنوا بين المعادن التي كانوا يجرون تجاربهم عليها وبين بعض الأجرام السماوية فنسبوا الذهب،إلى الشمس والفضة إلى الزهرة ، و الزئبق إلى عطارد، وقبل أن يضعوا أياً من هذه المعادن في تجاربهم الكيماوية كان عليهم أن يرصدوا مكان الجرم السماوي المقابل له في السماء[19].ورغم وجهة نظرهم المحدودة، فإنهم خلال عمليات الغلي والتقطير التي كانوا يقومون بها حصلوا

على بعض التقدم ؛ فاكتشفوا العديد من العناصر الأخرى التي لم يكن بعرفها أسلافهم، و خلفوا كثيرا من المركبات الهامة ، والأدوات والأجهزة.

وقد عرف العرب علم السيمياء، ومارسوه في حياتهم ، وذلك قبل أن تقعد له القواعد وتوضع له الأصول. فهو يقوم على الحدس الصادق، والملاحظة الدقيقة الصائبة، وقوة الذكاء، وكثرة المزاولة. ومن هذه المعارف:

القيافة: المشتقة من الفعل قفا يقفو أي تتبع الأثر، وهي نوعان: قيافة الأثر وقيافة البشر، وقيافة الأثر ليست مجرد قصّ، أو اقتفاء الأثر لقدم أو خف أو حافر، بل لتمييز أوصاف صاحبه، فكانت العرب تميز أثر الأعمى والبصير والشيخ والشاب والرجل والمرأة والبكر والثيب وشكله وهيئته، وما إذا كان به مرض أو علة كالأعور والأعرج والقصير، والأعجب أنهم كانوا يعرفون مقصده من أثر خطواته، والفطرة السليمة السوية قادتهم في اقتفاء الأثر إلى الصواب فالبعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، وكان ذلك يفيدهم في تتبع الفار والضال من الناس أو الحيوان، وكانوا يعرفون بالقصاص ، فيخبرون ولاة المنازل أي الناس هم ممن طرق تلك البلاد، وهم لم يروهم ، بل رأوا آثار أقدامهم[20].

وقيافة البشر وهي تتبع الشبه والملامح والأنساب من خلال ملامح الجسم في الناس، وسميت بذلك لأن صاحبها يتتبع بشرة الإنسان وجلده وأعضاءه وأقدامه، فيعرف سنه ونسبه وموطنه ومن أية عشيرة هو!، وهي قريبة من الفراسة. وقد لجأت قريش لاقتفاء أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق فحجبهم الله تعالى عن نبيه وعن صاحبه[21]، في الغار.

الفراسة: هي استدلال بالشاهد على الغائب، لها صلة وثيقة بالاتصال، ،فهي التي تسهل على المتفرس قراءة العلامة، واستنطاق الدلالة ، اعتمادا علة الإمارات الحاضرة. وهي فكره تقفز فجأة للوعي، لمن شُهد لهم بالصلاح وبالذكاء وبالمعرفة الطويلة بعد تفرس الوجه والجسم، وهي المهارة في التعرف على بواطن الأمور من ظواهرها، وعلم الفراسة يبحث في العلاقة بين الطباع وملامح الوجه . والفراسة علم عربي الأصل. والتفرس في الشيء ؛ أي نظر وتثبت ، وهي مشتقة من حذق أمر الخيل (الفرس) وإحكام ركوبها، والشخص فارس : في ركوب الفرس أو فارس في الرأي وعلمه بالأمور. وتعرف الفراسة اصطلاحا على أنها الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة. ويعرفها البعض على أنها معرفة أخلاق وطباع وأحوال البشر دون اتصال مباشر بهم، أو معرفة الأمور من النظرة الأولى . والعرب تضم كثيرا من الفنون والعلوم ، سواء ذات الأصل العربي أو اليوناني أو غيره إلى الفراسة ، طالما كان الهدف منها كشف ما في الباطن من الظاهر. ومن الفراسة عندهم: يقولون: عِظَم الجبين يدل على البله، وعَرْضُه على قلة العقل، وصغره على لطف الحركة، واستدارته على الغضب. والحاجبان إذا اتصلا على استقامة دلا على تخنيث واسترخاء، وإذا تزججا منحدرين إلى طرف الأنف، دلا على لطف وذكاء، وإذا تزججا نحو الصدغين، دلا على طَنْزٍ (سخرية)

واستهزاء. والعين إذا كانت صغيرة الموق ، دلت على سوء خلة ، وخبث شمائل، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها دليل فطنة وحسن خلق ومروءة، والناتئة على اختلاط عقل، والغائرة على حدة، والتي يطول تحديقها على قحة وحمق، والتي يكثر طرفها على خفة وطيش. والشعر على الأذن يدل على جودة السمع. والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان. وقد فاق العرب عن سواهم من الأمم ، في معرفة الخيل وما هو السيئ والجيد منها، وما يستحب من أوصافها. فرأس الحصان تاج محاسنه ، وأول ما يلفت النظر فيه ، ومنه يستدل على أصالته ومزاجه وصفاته ، وإذا كانت قوة الحصان بظهره وقوائمه ، فإن جماله في رأسه، وأفضل الرؤوس وأجملها ما كان صغيرا أو معتدلا في الضخامة، ناعم الجلد خاليا من الوبر متجردا من اللحم مستقيم الأذنين رحب الجبهة واسع الشدق كبير العينيين متناسق الأعضاء متناسبا في الجسم ، له أذنان طويلتان منتصبتان رقيقتان دقيقتان في الطرف كالأقلام ، ، يدل انتصابهما على احتفاظ الجواد بقوته ونشاطه ، في حين يدل ارتخاؤهما على التعب والإرهاق والعجز ، والخيل بصفة عامة قوية السمع حتى إنها تسمع وقع حوافر الخيل القادمة من بعيد وتنبه أصحابها.

والقيافة والفراسة كلتاهما تدخل في النوع الثاني من العلامات السيميوطيقية ، لأنها علم لا يختص به سائر الناس، بل لفئة معينة ممن رزقت قدرا كبيرا وخارقا من الذكاء، وقوة الحس والتمييز والإدراك[22].

التسمية: اهتم العرب كذلك بالتفاؤل بالأسماء الآدمية وبالتطير؛ من ذلك أن عمر بن الخطاب أراد أن يستعين برجل على عمل ، فسأله عن اسمه ، فقال الرجل : ظُلم بن سراقة ، فقال عمر : تظلم أنت ويسرق أبوك ، ولم يستعن به.

والتسمية تشكل نظاما سيميائيا لا يمكن دراسته بمعزل عن البعد الاجتماعي والنفسي، فالأسماء تحمل معطيات نفسية في أثناء التعامل الاجتماعي. وللأسماء في كل مجتمع دلالتها ، وعلاقتها التي تجمع المسمي والمسى له. وهي تطلق تيمنا لجلب الحظ الجيد، أو لتكريس صفة من الصفات الحسنة في المسمى، وهكذا يظل الاسم ترجمة لقناعات المسمي ولرغباته

الداخلية ولأحلامه. والاسم العربي هو رمز الصلة الدموية الثابتة ، الذي يستحضر تراث القوم كله، لذا كان على صاحبه أن يلعب دور قومه بالنيابة عن فرديته[23].

الريافة: استنباط الماء من الأرض، بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده ، فيعرف بعده وقربه بشم التراب، أو بالنباتات الموجودة فيه ، أو بحركة حيوان وجد فيه، وهي من فروع الفراسة من جهة معرفة وجود الماء والهندسة من جهة الحفر وإخراجه.

وكان الصحابة رضي الله عنهم أكثر الناس فِراسة من غيرهم، وأفضل تفرس عرفه التاريخ الإسلامي فراسة أبي بكر رضي الله عنه في عمر رضي الله عنه حين أصرّ على استخلاف عمر رضي الله عنه فكان من ذلك خير كثير للمسلمين وغيرهم، وقولته المشهورة:" فكلكم ورم أنفه "، للصحابة رضوان الله عليهم ،حين عهد لعمر بالخلافة [24]، أي اغتاظ وغضب وذلك هو إشارة حكت الواقع بصدق . "وكان أبو بكر رضي الله عنه من أسياد الفراسة في زمانه، فإنه ما قال عن شيء أظنه كذا، إلا وكان كما قال"[25].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اتقوا فراسة المؤمن.. فإنه ينظر بنور الله" فكلما ازداد المؤمن إيماناً ازداد تفرساً.. وقال عليه الصلاة والسلام : "إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم " رواه البزار والطبراني في الأوسط. فالفراسة اختص بها الأتقياء الأطهار من الصحابة والتابعين. قال صاحب شرح العقيدة الطّحاوية : "الفراسة نور يقذفه الله في قلب عبده المؤمن ، ليفرق بين الحق والباطل"[26].

وفي مجال الدراسات العلمية الجادة قدم الجاحظ (159 ـ 255 هـ) دليلا باهرا على عبقريته المشهود بها .وهو يرفد الدراسات العلمية ببحث سيميائي مميز نلخص ملامحه فيما يلي :

1- تعريفه البيان بأنه :" اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى . أي كل ما أوصل السامع إلى المعنى المراد، .يستوي في ذلك كل أجناس الأدلة،فبأي شيء بلغت الإفهام ووضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع[27] ".

2- تعداده العلامات والإشارات التي تدل على المعنى وهي خمسة أشياء :اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال (النصبة). والإشارة بمفهوم الجاحظ ،تتسع لتشمل جميع أشكال السلوكيات الحركية ، كتعابير الوجه، والعينين والحركات الجسدية،و الأوضاع البدنية الدالة ، ولاحظ الجاحظ أيضا اختلاف الإشارات في الطبقات والدلالات ؛فإشارة العين مثلا لها عدة طبقات من النظر والغمز ورفع الحاجب،ونحوها ، والتي تتعدد دلالاتها من موقف اتصالي إلى آخر[28].يقول الجاحظ : " وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة من أمور ، يسترها بعض الناس عن بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس"[29].

3- تفصيله الإشارات الناقلة للمعاني وشرحه لكيفيتها ،وتطورها ،وتحديده للمواقف الاجتماعية التي تستدعي التعبير بالإشارة كالرغبة في ستر بعض الأمور وإخفائها عن الحاضرين .

كذلك نجد ابن قتيبة(213 ـ 276 ه) قد أورد في كتاب : "العلم والبيان" الوسائل غير اللفظية، وهي الاستدلال بالعين، والإشارة والنصبة . وهي الحال الناطقة بغير لفظ ، والمشيرة بغير يد مثل قول الفضل بن عيسى بن أبان :"سل الأرض فقل: من شق أنهارك ؟وغرس أشجارك ؟وجنى ثمارك ؟فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا [3030]". من الميادين الأخرى :معرفة الكاذب من المنافق بعلامات كثيرة، الصوت وإيقاع الكلام

قال الراغب الأصفهاني (ت 502 ه) مدللا على أن نغمة الصوت تختلف تبعا للمقاصد والأغراض " ...فاختلاف الألسنة إشارة إلى اختلاف اللغات وإلى اختلاف النغمات ،فإن لكل إنسان نغمة مخصوصة يميزها السمع كما أن له صورة مخصوصة يميزها البصر ."[31]. واعتبر الراغب الأصفهاني أن الإشارات والرموز والكتابة لها دلالات وسواء أكان ذلك بقصد من يجعله دلالة، أم لم يكن يقصد ، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي"[32]. ويستشهد الأصفهاني على تصوره هذا بما ورد في قوله تعالى في سورة سبأ الآية : **{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ }** . فتجسيد ذلك في صورة سيلمان عليه السلام، الذي ظل بعد وفاته عاماً منتصباً ومستنداً على منسأته(عصاه). وهذا ما يسميه الجاحظ بالنصبة ، أوّلها الجن على الحياة، لذلك ظلت تعمل، وكأنها مأمورة. فلما خر ساقطاً، وهي علامة على موته .

أما ابن القيم (691 ـ 751 ه) في معرض جوابه عن سؤال أهمية الفراسة في إطلاق الحكم في حق المتهم، قال: " فهذه مسألة كبيرة عظيمة النفع جليلة القدر ، إن أهملها الحاكم أو الوالي أضاع حقا كثيرا ، وأقام باطلا كبيرا ، وإن توسع وجعل معوّله عليها دون الأوضاع الشرعية ، وقع في أنواع من الظلم والفساد"[33] .

أما ابن خلدون (710 ـ 784ه) في مقدمته؛ فيذكر مرة على أن هذا العلم هو من علوم السحر، عند حديثه عن علم السحر و الطلسمات ، ويطلق عليه اسم صناعة السيمياء، يقول :" ... إن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى،

إنما يكون بالقوة النفسية،لا بالصناعة العملية ، فهو من قبيل السحر"[34]. ومرة أخرى يجعل له تسمية علم أسرار الحروف، ويرى أنه نشأ في الصدر الأول للإسلام عند ظهور الغلاة من المتصوفين.

وهكذا فإن مصطلح السيمياء بالمعنى اللغوي المقابل للعلامات، معروف عند العرب ، وهي موجودة في علوم المناظرة والأصول والتفسير والنقد ، فضلا عن ارتباطها الوثيق بعلم الدلالة الذي كان يتناول اللفظة وأثرها النفسي كذلك ، وهو ما يسمى بالصورة الذهنية والأمر الخارجي عند المحدثين . فالواقع يقول أن :"المساهمة التي قدمها المناطقة والأصوليون والبلاغيون العرب مساهمة مهمة في علم الدلالة ، وقد كانت محصورة ضمن إطار الدلالة اللفظية ، وتوصل العرب إلى تعميم مجال أبحاث الدلالة على كل أصناف العلامات ، ومن الواضح أنهم اعتمدوا اللفظية نموذجا أساسيا .كذلك فأقسام الدلالة عند العرب قريبة من تقسيم بيرس ، وتبقى أبحاثهم التي تتناول تعيين نوعية دلالة الألفاظ المركبة أو بوجه

عام العلامات المركبة وتحليل الدلالة المؤلفة من تسلسل عدة، توابع دلالية مدخلا جديدا ذا منفعة قصوى للسيمياء المعاصرة"[35].

الخاتمة:

بعد هذا العرض الذي انصب على دراسة السيمياء باعتبارها علم حديث، ومنهج يتبع في تحليل النصوص، وباعتبار أن العلامة هي موضوع هذا العلم سواء أكانت لغوية أم غير لغوية ،وباعتبار أن هذه العلامة هي وسيلة للاتصال داخل المجتمع ، ورمز يمتد ليشمل الكون كله، هي موجودة منذ وجود الإنسان، واتصاله بغيره ، وبهذا الكون الشاسع، وقد أكد الفيلسوف أفلاطون هذه الفكرة بقوله أن للأشياء جوهراً ثابتاً، وأن الكلمة أداة للتوصيل، وبذلك يكون بين الكلمة ومعناها، أي بين الدال والمدلول تلاؤم طبيعي.

ـ وعليه فإن دراسات النظام الإشاري في التراث العربي هي دراسة قديمة قدم الدرس اللساني، إلا أن الأفكار والتأملات السيميائية ظلت في إطار التجربة الذاتية، ولم تتجسد في إطار التجربة العلمية الموضوعية.

ـ يرى دي سوسير وتلاميذه أن اللسانيات جزء من السيمياء ، بينما يرى البعض الآخر أن اللسانيات هي أصل السيمياء.

ـ السيمياء هي علم الإشارة، وهو يضم جميع العلوم الإنسانية والطبيعية.

ـ السيمياء علم للأنظمة اللغوية وغير اللغوية.

ـ تنقسم السيمياء إلى قسمين: سيمياء تهدف إلى الإبلاغ والتواصل، من خلال ربط الدليل بالمدلول والوظيفة القصدية، وسيمياء الدلالة فتربط الدليل بالمدلول أو المعنى.

الإحالات:

1-محاضرات في السيميولوجيا . محمد السرغيني. دار الثقافة . البيضاء ط1. 1987. ص: 65،66،68.

[2]-تشريح النص . عبد الله الغذامي.المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب .ط2 .2007 . ص: 18.

[3] -الظاهر والمختفي (طروحات جدلية في الإبداع والتلقي) . عبد الجليل مرتاض. ص: 58.

[4] -اللغة والتواصل.عبد الجليل مرتاض دار هومة . الجزائر.ط1. 2000. ص: 108 .

[5] -المزهر.السيوطي. تحقيق محمد جاد المولى.علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم .مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة 43/1. .

- [6]كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم . التهانوي محمد علي ..تحقيق رفيق العجم وعلي دحروج.مكتبة لبنان .ط1 . 1996 ح 1، ص: 999.

- [7]المصباح المنير . الفيومي.المكتبة العلمية . بيروت. ج 2 . ص: 290

- [8]أبجد العلوم .صديق بن حسن القنوجي ، تحقيق عبد الجبار الزكار.دار الكتب العلمبة .1978. ط 1 دمشق .ص 392

[9] -انظر تقديم مازن الوعر لكتاب : بيير جيرو : علم الإشارة السيميولوجيا ترجمة منذر عياش ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق 1998م ص 9 –21.

[10] -مدخل إلى المنهج السيميائي ، جميل حمداوي : مجلة عالم الفكر الإلكترونية العدد3 .

[11] - بيير غيرور: السيمياء ترجمة: أنطون أبن زيد ط 1 ، 1984م ، منشورات عويدات ، بيروت لبنان ص 50.

[12] -مدخل إلى المنهج السيميائي ، جميل حمداوي : مجلة عالم الفكر الإلكترونية العدد3 .

[13] الاتجاهات السيميوطيقية .جميل حمداوي.ط1 . 2015 . ص: 11 .

[14] -عواد علي: معرفة الآخر،مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء، الطبعة الأولى سنة 1990.ص:84-106.

[15] -مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة: لحمداني حميد وآخرون، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة 1987م.

[16] -عواد علي. معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة . ص:96.

[17] -عبدالقاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، المنار ، الطبعة الثانية ، 137هـ ص 33

[18] -رابط الموضوع: 2019/01/30 http://www.alukah.net/literature_language/0/73254/#ixzz4XGaEPr7y

[19] -نشأة علم السيمياء (الكيمياء)، طارق اسماعيل كاخيا، 2017/01/30 الموقع: http://almerja.net/reading.php?idm=38222

[20] مروج الذهب . المسعودي علي بن الحسن بن علي . دار الأندلس .بيروت.ط1 . ج 2 . ص: 145 .

[21] -دراسة سيميائية ودلالية في الرواية والتراث. عبد الجليل مرتاض منشورات ثالة 2005 ص : 72

[22] -المرجع السابق.دراسة سيميائية ودلالية في الرواية والتراث. عبد الجليل مرتاض ص: 74 .

[23] ا - استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية . مطاوع صفدي. المجلس القومي . بيروت 1986 . ص: 148 ـ 149.

[24] -النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ، تحقيق طه أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي ، المكتبة العلمية – بيروت – د.ت 1 ص 76.

[25] -الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس. وطبائعهم كأنهم كتاب مفتوح .فخر الدين الراوي .تحقيق مصطفى عاشور.مكتبة القرآن . مصر.ص. 7

[26] -شرح العقيدة الطحاوية ، مصطفى بن العدوي . دار ابن حزم .بيروت. ص: 496 .

[27] -البيان والتبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .تحقيق عبد السلام محمد هارون. مؤسسة الخانجي. القاهرة ج 1 ص 75، 76.

[28] -العبارة والإشارة دراسة في نظرية الاتصال . محمد العبد.مكتبة الآداب . مصر. ط2. 2007 . ص: 146.

[29] -المصدر السابق . البيان والتبيين . الجاحظ .ج :1 .ص: 57.

[30] -المصدر نفسه .البيان والتبيين الجاحظ ، ج 1 ، ص 81 .

[31] -مفردات غريب القرآن الراغب الأصفهاني : تحقيق محمد سيد عماد الدين الكاتب دار المعرفة – بيروت د. ت ص 450.

[32] -الراغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، مادة (دل).

[33] *-الفراسة . ابن القيم الجوزية . تحقيق مصطفى عاشور . مكتبة القرآن . القاهرة . ص:5 .*

[34] -المقدمة. عبد الرحمن ابن خلدون.تحقيق علي عبد الواحد وافي.مطبعة الرسالة.ط2 .ص: 1248.

[35] -علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة عادل فاخوري، دار الطليعة ، بيروت ط 2 1994م ص: 70